﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾﴾ [الكهف: 102]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لما قَبْلَها:

الإنكارُ على المُعرِضِ بعدَ بيانِ إعراضِه المغرض

لمّا بيَّنَ اللهُ ﷻ مِنْ حالِ الكافرينَ أنَّهم أعرَضوا عنِ الانتفاعِ بدلائلِ المُشاهَداتِ على وحدانيَّةِ اللهِ سبحانه وأعرَضوا عن سماعِ الآياتِ والذِّكْرِ وما جاءَ به الرُّسُلُ - عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ - أتبعَهُ على سبيلِ الإنكارِ والتَّوبيخِ بقولِه: ﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ ۚ﴾[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَفَحَسِبَ﴾: الحساب: العَدُّ، كما في قولِه تعالى: ﴿لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ﴾ [يونس: 5]، والحُسْبانُ: الظَّنُّ؛ لأنَّهُ إذا قالَ: حَسِبْتُهُ كذا، فكأنَّهُ قالَ: هو في الَّذي أَعُدُّهُ مِنَ الأمورِ الكائنةِ، قالَ تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ﴾ [إبراهيم: 42]، وقالَ: ﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ ۚ﴾، وقالَ: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ﴾ [العنكبوت: 2]، وقالَ: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ﴾ [العنكبوت: 4]، والحَسَبُ معناهُ: أنْ يَعُدَّ الإنسانُ آباءَ أشرافًا، ومنهُ أيضًا قولُهم: احتسبَ فلانٌ ابنَهُ، إذا ماتَ كبيرًا، وذلكَ أنْ يَعُدَّهُ في الأشياءِ المذخورةِ لهُ عندَ اللهِ تعالى[2]، وقولِه تعالى: ﴿وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: 173]، أي: كافينا هو[3]، والمعنى في الآية: (أفظَنَّ).

2) ﴿عِبَادِى﴾: العُبوديَّةُ: إظهارُ التَّذلُّلِ، والعِبادةُ أبلغُ منها؛

(1) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 21/ 501، وابن عادل، اللباب: 12/ 570، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 43.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (حسب).

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والسمين، عمدة الحفاظ: (حسب).

لأنَّها غايةُ التَّذلُّلِ، ولا يستحقُّها إلّا اللّهُ تعالى[1]، والعبدُ على أضرُبٍ منها: عبدٌ بالإيجادِ الَّذي لا يكونُ إلَّا للّهِ، وهو المقصودُ بقولِه جلَّ وعزَّ: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ﴿٩٣﴾﴾ [مريم: 93]، وعبدٌ بالعِبادةِ والخِدْمةِ، والنّاسُ في هذا نوعانِ: عبدٌ للّه مُخلَصٌ، وهو المقصودُ بنحوِ قولِه ﷻ: ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ﴾ [ص: 41]، وعبدٌ للدُّنيا مُعتكِفٌ على خِدْمتِها ومراعاتِها[2].

3) ﴿أَعۡتَدۡنَا﴾: (عتد) يدل على الحُضورِ والقُرْبِ[3]، وتوفُّرِ الشَّيءِ في المُتناوَلِ، أي: كونُهُ حاضرًا كافيًا مُهيَّأً[4]، والعَتادُ: ادِّخارُ الشَّيءِ قبلَ الحاجةِ إليهِ[5]، ومعنى قوله: ﴿أَعۡتَدۡنَا﴾: أعدَدْنا ويسَّرْنا وهيَّأْنا[6].

4) ﴿نُزُلًا﴾: (نزل) أصل يدلّ على هُبوطِ شيءٍ مِنْ عُلْوٍ إلى سُفْلٍ[7]، ووقوعُهُ في مَقَرٍّ أو حيِّزٍ يوجَدُ فيه[8]، يقالُ: نزلَ عن دابَّتِه، ونزلَ في مكانِ كذا: حطَّ رَحْلَهُ فيه، وأنزلَهُ غيرُهُ، قالَ جلَّ وعزَّ: ﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلۡنِي مُنزَلٗا مُّبَارَكٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [المؤمنون: 29][9]، وقد يُرادُ بالنُّزولِ مُجرَّدُ الحُلولِ وإنْ لم يكنْ فيه هُبوطٌ، كقولِه تعالى: ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمۡ﴾ [الصافات: 177]، أي: حلَّ[10]، والنُّزُلُ: ما يُعَدُّ للضَّيْفِ مِنَ الزّادِ، وعليه قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا جَهَنَّمَ لِلۡكَٰفِرِينَ نُزُلًا﴾[11].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يُخبِرُ اللّهُ ﷻ عن حالِ الكَفَرةِ الَّذينَ عبَدوا بعضَ عبادِهِ، واتَّخَذوهم آلهةً وأَرْبابًا مِنْ دونِه ﷻ ويُخبِرُ عن سوءِ ما يُلاقونَ يومَ القيامةِ، فيقولُ جلَّ ذِكْرُهُ: أَفَظَنَّ الَّذينَ

(1) السمين، عمدة الحفاظ: (عبد).
(2) الراغب، المفردات: (عبد).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عتد).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي: (جبل).
(5) الراغب، المفردات: (عتد).
(6) أبو حيان، البحر المحيط: 7/ 230.
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نزل).
(8) جبل، المعجم الاشتقاقي: (نزل).
(9) الراغب، المفردات: (نزل).
(10) السمين، عمدة الحفاظ: (نزل).
(11) الزمخشري، الكشاف: 2/ 749.

كَفَروا باللّه مِنْ عَبَدَةِ الملائكةِ والمسيحِ ونحوِهم أنْ يتَّخِذوا عبادي مِنْ دوني أولياءَ، واعتقَدوا أنَّهم يصحُّ لهُم ذلكَ، وينتفعونَ بهِ؟! كلّا، لا ينتفعونَ بذلكَ، بل هم لهُم أعداءٌ؛ ﴿سَيَكۡفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمۡ وَيَكُونُونَ عَلَيۡهِمۡ ضِدًّا ٨٢﴾ [مريم: 82]، ولهذا أخبرَ جلَّ شأنُهُ أنَّهُ قد أعدَّ لهُم جهنَّمَ ضيافةً، ومَنزِلًا مُعَدًّا لهم يُلاقونَ فيه ألوانَ العذابِ والنَّكالِ[1].

الخسارةُ البيِّنةُ لمَنْ سوَّى بينَ المخلوقِ والخالقِ

وترشدُ الآيةُ الكريمةُ إلى بطلانِ دعوى المشركين الكافرين، الذين اتخذوا بعضَ الأنبياء والأولياء شركاءَ للّه يعبدونهم، ويزعمون أنهم يكونون لهم أولياء، ينجونهم من عذاب اللّه، ويُنيلونهم ثوابَه، وهم قد كفروا باللّه وبرسله، وإلى كذبِ مَن زعم أنه يتخذُ من دون اللّه وليًّا له، وهو معادٍ للّه، وإلى أنَّ جميعَ المخلوقين ليس بيدهم من النَّفع والضُّر شيء، وأنَّ المتخذَ من دونه وليًّا ينصره ويواليه، ضالٌّ خائب الرجاء، غيرُ نائل لبعض مقصوده[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الاستفهامِ في صَدْرِ الآيةِ الكريمة:

الإنكارُ والتَّوبيخُ يناسبان ما فعل هؤلاء الكافرون

الاستفهامُ في قولِه ﷻ: ﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِي مِن دُونِيٓ أَوۡلِيَآءَۚ﴾ ليسَ على حقيقتِهِ؛ لأنَّ الكافرينَ قد حَسِبوا ذلكَ فعلًا، بل في الاستفهامِ معنى الإنكارِ - أي: إنكارِ الواقعِ واستقباحِه - ومعنى التَّوبيخِ[3]، والمعنى: أَفَظَنّوا أنَّهم ينتفعونَ بما عبَدوهُ، معَ إعراضِهم عن تدبُّرِ الآياتِ، وتمرُّدِهم عن قبولِ أمرِ اللّه سبحانَهُ وأمرِ رسولِهِ؟![4].

(1) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 124، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 201.
(2) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 487.
(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/ 294، والبقاعي، نظم الدرر: 12/ 146، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 248.
(4) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 21/ 501.

معنى الفاءِ ودلالتها في قولِهِ: ﴿أَفَحَسِبَ﴾:

العطفُ والتَّفريعُ في معنى الفاء دليل على ثراء المعاني واتّساعها

الفاءُ للعطفِ على مُقدَّرٍ تُفصِحُ عنهُ الصِّلةُ، على توجيه الإنكارِ والتَّوبيخِ إلى المعطوفينِ جميعًا، والمعنى: (أَكَفَروا بي معَ جلالةِ شأني، فحَسِبوا أنْ يتَّخِذوا عبادي مِنَ الملائكةِ وعيسى وعُزيرٍ ﷺ وهم تحتَ سُلطاني ومَلَكوتي أولياءَ معبودينَ يَنصُرونَهم مِنْ بأسي؟)[1]، وفي الفاءِ معنى التَّفريعِ على ما قبلَها[2]، وقيلَ: إنَّ الفاءَ للعطفِ على ما قبلَها مِنْ قولِه سبحانَهُ: ﴿كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾؛ دلالةً على أنَّ الحُسْبانَ ناشئٌ مِنَ التَّعامي والتَّصامِّ، وأُدخِلَ على الفاءِ همزةُ الإنكارِ؛ ذمًّا على ذمٍّ، وقطعًا لهُ عنِ المعطوفِ عليهما لفظًا لا معنىً؛ للإيذانِ بالاستقلالِ المُؤكِّدِ للذَّمِّ، كأنَّهُ قيلَ: لا يُزيلونَ ما بهِم مِنَ الغِشاوةِ والصَّمَمِ، ويزيدونَ عليهما الحُسْبانَ المترتِّبَ عليهما، وعلى ذلكَ يكونُ قولُهُ سبحانَهُ: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ مِنْ وضعِ الظَّاهرِ موضعَ المُضمَرِ؛ زيادةً للذَّمِّ[3].

دلالة تعيين مفعولَيْ ﴿أَفَحَسِبَ﴾:

ما في حيِّزِ صلةِ (أنْ) سادٌّ مَسَدَّ المفعولينِ

اختُلِفَ في تعيينِ مفعولَيْ ﴿أَفَحَسِبَ﴾ في قولِه عزَّ مِنْ قائلٍ: ﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن يَتَّخِذُوا۟ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ﴾: فقيلَ: ما في حيِّزِ صلةِ ﴿أَن يَتَّخِذُوا۟﴾ سادٌّ مَسَدَّ مفعولَيْ (حَسِبَ)[4]، كما في قولِه تعالى: ﴿وَحَسِبُوٓا۟ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ [المائدة: 71]، والمعنى: أَفَحَسِبوا أنَّهم يتَّخِذونَهم أولياءَ؟ على معنى أنَّ ذلكَ ليسَ مِنَ الاتِّخاذِ في شيءٍ؛ لما أنَّ الاتِّخاذَ إنَّما يكونُ مِنَ الجانبينِ، وهم عليهِمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ مُنزَّهونَ عن ولايتِهم بالمرَّةِ[5]، أو: (أَحَسِبَ الَّذينَ كَفَروا من عبادي

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 248، والشوكاني، فتح القدير: 3/ 372، والآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 366.
(2) الخفاجي، عناية القاضي: 6/ 136.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 366.
(4) السمين، الدر المصون: 7/ 551.
(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 248.

مُتَّخَذينَ أولياءَ لهُم مِنْ دوني)، والإنكارُ مُتسلِّطٌ على معمولِ المفعولِ الثّاني وهو ﴿أَوْلِيَآءَ﴾ المعمولُ لـ ﴿يَتَّخِذُواْ﴾، بقرينةِ ما دلَّ عليه فعلُ (فحَسِبَ) مِنْ أنَّ هنالكَ محسوبًا باطلًا؛ وهو كونُهم أولياءَ باعتبارِ ما تقتضيه حقيقةُ الولايةِ مِنَ الحمايةِ والنَّصرِ[1]. وقيلَ: مفعولُهُ الثّاني محذوفٌ، أي: أَفَحَسِبوا اتِّخاذَهم نافعًا لهُم[2]، والرّاجحُ الأوَّلُ؛ لأنَّ في هذا تسليمًا لنفسِ الاتِّخاذِ، واعتدادًا به في الجُملةِ[3].

الغرضُ من التعبير بالاسمِ الموصولِ في: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾:

علّةُ ما في حيِّزِ الصِّلةِ للحُكْمِ المُنْكَرِ

عُبِّرَ بالاسمِ الموصولِ في قولِه جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ﴾، دون أن يقال: (الكافرين)؛ دلالةً على الوصفِ الَّذي أوجبَ لهُم ذلكَ[4]، يعني: أنَّ ما في حيِّزِ صلةِ الموصولِ - وهو الكفرُ - هو علَّةُ الحُكْمِ المُنكَرِ؛ وهو اتِّخاذُ العِبادِ أولياءَ مِنْ دونِ اللهِ ﷻ فكفرُهم هو الَّذي أعمى أبصارَهم وبصيرتَهم، وجعلَهم يتَّخذونَ العِبادَ أولياءَ مِنْ دونِ الرَّبِّ المعبودِ.

نكتةُ الإظهارِ في مقامِ الإضمارِ في ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾:

استقلالُ الجملةِ، والمبالغةُ في التَّوبيخِ

إظهارُ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ في قولِه عزَّ مِنْ قائلٍ: ﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ﴾، دونَ أنْ يقالَ: (أفحَسِبوا) بإعادةِ الضَّميرِ إلى الكافرينَ المذكورينَ في قولِه جلَّ شأنُهُ: ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا﴾، لقصدِ استقلالِ الجملةِ بدلالتِها؛ لأنَّهُ لو عُبِّرَ بالإضمارِ لكانَتِ الجملةُ مرتبطةً بما قبلَها لفظًا ومعنىً؛ لحاجةِ الضَّميرِ إلى مرجعٍ، وزيادةً في إظهارِ التَّوبيخِ[5]؛ لما يترتَّبُ على التَّعبيرِ بالموصولِ مِنَ التَّنبيهِ على علَّةِ ما استحقّوا عليه التَّوبيخَ كما تقدَّمَ.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 43.
(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/ 294، والبقاعيّ، نظم الدرر: 12/ 146.
(3) النسفي، مدارك التنزيل: 2/ 322، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 248.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 146.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 44.

علَّةُ التَّعبيرِ بالماضي في ﴿كَفَرُوٓاْ﴾:

بيان رُسوخِ قَدَمِ الكافرين في الكفرِ

اختيرَتْ صيغةُ الماضي في قولِه ﷻ: ﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ﴾؛ إشارةً إلى أنَّ كفرَ هؤلاءِ الكفرةِ أمرٌ قديمٌ، قد اصطبغَتْ به أحوالُهم وشؤونُهم، ورسخَ في أنفُسِهم وعقولِهم، وضربَ في سوَيْداواتِ قلوبِهم بجِرانِهِ، بحيثُ صارَ كالأمرِ الفِطْريِّ الَّذي تُجبَلُ عليه النُّفوسُ.

دلالة التَّعبيرِ بالمضارعِ في ﴿يَتَّخِذُواْ﴾:

تجدُّدُ اتِّخاذِ الآلهةِ واستمرارُه في حياة الكفرة

صيغَ فعلُ الاتِّخاذِ بصيغةِ المضارعِ في قولِه ﷻ: ﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ﴾؛ للدَّلالةِ على تجدُّدِ الاتِّخاذِ منهُم، وأنَّهم غيرُ مُقلِعينَ عنهُ[1]، وقيلَ: فعلُ ﴿يَتَّخِذُواْ﴾ للمستقبلِ، أي: أحَسِبوا أنْ يتَّخِذوا عبادي أولياءَ يومَ القيامةِ كما اتَّخذوهم في الدُّنيا، وهو المُشارُ إليه بقولِه سبحانَهُ: ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا﴾[2].

سرّ الإضافةِ في ﴿عِبَادِى﴾:

تشريفُ العبادِ وهم صفوةُ الملائكةِ المُقرَّبينَ والأنبياءِ المصطفَين

المرادُ بالعِبادِ في قولِ اللهِ جلَّ شأنُهُ: ﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ﴾: الملائكةُ وعُزيرٌ والمسيحُ عليهم السلام ونحوُهم مِنَ المُقرَّبينَ، وهذا هو الأظهرُ، بدليلِ الإضافةِ في ﴿عِبَادِى﴾؛ فإنَّ الأكثرَ أنْ تكونَ في مِثلِ هذا اللَّفظِ للتشريفِ[3]، ويحتمل أن يُرادَ بالعِبادِ المُؤمنونَ به سبحانَهُ المُحبّونَ لهُ، الَّذينَ اختاروا مُراداتِ اللهِ على مراداتِ نفوسِهم[4]، ويحتملُ ألّا تكونَ الإضافةُ للتَّشريفِ، بل باعتبارِ أنَّهم مِلْكُهُ سبحانَهُ، والمعنى: أفَظَنّوا أنْ يتَّخذوا عِبادي الَّذينَ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 44.
(2) الزمخشري، الكشاف: 2/ 749، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 44.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 7/ 229، والآلوسي، روح المعاني: 8/ 366.
(4) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 15/ 8999.

هم تحتَ مِلْكي وسُلطاني[1]، وقيلَ: المرادُ بالعِباد هنا: الشَّياطينُ، وقيلَ: المرادُ بهِم: الأصنامُ؛ لأنَّها خَلْقُهُ سبحانَهُ ومِلْكُهُ[2].

وجهُ التقييد بـ﴿مِن دُونِيٓ﴾، ومعناهُ:

احتمال اللّفظ عدَّةَ معانٍ يبين عن اتّساع دلالته

سر التقييد بـ﴿مِن دُونِيٓ﴾ تحقيرُ المتخذِ معبودًا غير الله، مع ما فيه من تغزير المعنى، فـ﴿مِن دُونِيٓ﴾ مُتعلِّقٌ بـ ﴿أَوْلِيَآءَ﴾: إمّا بجعلِ ﴿دُونِيٓ﴾ اسمًا بمعنى (حَوْلٍ)، أي: مِنْ حَوْلِ عذابي، وتأويلِ ﴿أَوْلِيَآءَ﴾ بمعنى: أنصارًا، أي: حائلينَ دونَ عذابي ومانِعيهم منهُ، وإمّا بجعلِ ﴿دُونِيٓ﴾ بمعنى: غيري، أي: أحَسِبوا أنَّهم يستغنونَ بولايتهم[3]، وقيلَ: (دونَ) هنا: إمّا نقيضُ (فوقَ)، أو بمعنى (غيرٍ)، أي: أظَنّوا مَنْ هو في حَضيضِ العُبوديَّةِ معبودًا كالعَليِّ الأعلى؟ أو: أظَنّوا غيرَ اللّه معبودًا معَهُ أو دونَهُ؟[4]، وقيلَ: معنى ﴿مِن دُونِيٓ﴾: مُجاوِزينَ[5].

نكتة جمعِ لفظ ﴿أَوْلِيَآءَ﴾:

مقابلةُ جمعِ العِبادِ، بجمعِ الأولياءِ في السّياق المستفاد

جمعُ الأولياءِ في قولِه ﷻ: ﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِى مِن دُونِيٓ أَوْلِيَآءَ﴾ دونَ أنْ يقالَ: (وَليًّا)؛ لأنَّ المرادَ بالعِبادِ على الرّاجحِ: الملائكةُ وعيسى وعُزيرٌ عليهم السلام ونحوُهم مِنَ المُقرَّبينَ، وقد كانَ مِنَ النّاسِ مَنْ يَعبُدُ الملائكةَ، ومنهُم مَنْ يَنسُبُ الأُلوهيَّةَ لعيسى عليه السلام، ومنهُم مَنْ يَنسُبُها لعُزيرٍ عليه السلام، فقوبِلَ الجمعُ في ﴿عِبَادِى﴾ بالجمعِ في ﴿أَوْلِيَآءَ﴾ باعتبارِ أنَّ كلَّ فِرْقةٍ مِنَ المذكورينَ ونحوِهم قد اتَّخَذَتْ وليًّا دونَ الوَليِّ الَّذي اتَّخَذَتْهُ الفِرْقةُ الأخرى.

براعةُ الإيجازِ بالحذف في الآيةِ الكريمة:

ما في الآيةِ من المحذوف إيجازٌ بقرينةِ السّياقِ المعروف

في الآيةِ كلامٌ محذوفٌ دلَّ عليه قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ

(1) الآلوسي، روح المعاني: 8/ 366.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 7/ 229.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 44.
(4) الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 6/ 137.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 8/ 366.

لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا﴾، أي: أفحَسِبوا أنْ يتَّخذوهم أندادًا يعبدونَها، أو أنصارًا يُقاوِمونَ بهم حُكْمَ اللّه فيهم، ونتركَهم مِنْ غيرِ مؤاخَذةٍ، أو لا نُحاسِبَهم على ما يفعلونَ، وهذا كقولِه سبحانَهُ: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾﴾ [القيامة: 36][1].

بلاغةُ التَّوكيدِ في ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا﴾:

ملاءمةُ التَّوكيدِ لمقامِ الإنكارِ والتَّوبيخِ في السّياق

لمّا كانَ معنى الاستفهامِ الإنكاريِّ في قولِه جلَّتْ قُدرتُهُ: ﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ﴾ - وليسَ الأمرُ كذلكَ، بل أصلدَ زَنْدُهم، وغابَ سَعْدُهم؛ حَسُنَ جِدّاً التَّأكيدُ بـ﴿إِنَّآ﴾ في قولِه جلَّ شأنُهُ: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا﴾[2]؛ لأنَّهُ مُقرِّرٌ لإنكارِ انتفاعِهم بأوليائِهم، ومُبيِّنٌ أنَّ جهنَّمَ أُعِدَّتْ لهُم نُزُلًا، فلا مَحيصَ لهُم عنها[3].

علَّةُ الإسناد إلى (نا) الدالة على التَّعظيمِ في ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا﴾:

التَّعظيمُ في مقامِ الوعيدِ والتَّهديدِ متناسبٌ مع صيغة التّوكيد

لمّا كانَ المقامُ لإنكارِ اتِّخاذِ المشركينَ أولياءَ لهُم مِنْ دونِ اللّهِ، وتهديدِهم ببيانِ سوءِ عاقبتِهم وما أُعِدَّ لهُم مِنَ العذابِ الأليمِ؛ جُعِلَ المسندُ إليه ضميرَ الجلالةِ في قولِ اللّه جلَّ شأنُهُ: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا﴾؛ لإدخالِ الرَّوعِ والمَهابةِ في ضمائرِ المشركينَ[4]، ببيانِ أنَّ الَّذي أعدَّ لهُم جهنَّمَ هو ذو العظَمةِ والجلالِ، وعذابُ العظيمِ عظيمٌ أليمٌ شديدٌ.

دلالة التَّعبيرِ بالماضي في الفعل ﴿أَعْتَدْنَا﴾:

جهنَّمُ معدّة للكافرينَ، موصوفة بالنُّزل المهين

يدلُّ التَّعبيرُ بصيغةِ الماضي في قولِه ﷻ: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا﴾، على أنَّ جهنَّمَ مخلوقةٌ اليومَ للكافرينَ المعهودينَ،

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 9/ 4594.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 146.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 16/ 44.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 16/ 44.

وأنَّهُ قد تمَّتْ تهيئتُها لهُم[1]، وكأنَّها تنتظرُهم وتستعدُّ لتلقّيهم يومَ القيامةِ، يومَ الحَسْرةِ والنَّدامةِ، ولاتَ ساعةَ مَنْدَمٍ.

نكتةُ إيثارِ لفظِ ﴿جَهَنَّمَ﴾:

تخويفُ الكافرينَ بجهنَّم، والقصدُ لاستقلالِ الجملةِ

اختيرَ اسمُ جهنَّمَ دونَ غيرِه مِنْ أسماءِ النّارِ في قولِه ﷻ: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا﴾؛ لتخويفِ الكافرينَ بذكرِ جهنَّمَ البعيدةِ القَعْرِ الَّتي تتلقّاهم بالتَّجهُّمِ والكراهةِ؛ لما فيها مِنَ الغَيْظِ والحَنَقِ عليهم، إضافةً إلى قصدِ الإشارةِ لاستقلالِ الجملةِ، ولذلكَ أُعيدَ إظهارُ لفظِ ﴿جَهَنَّمَ﴾ معَ تقدُّمِه في قولِه تعالى: ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا﴾.

الغرض من الإظهارِ في مقام الإضمار في: ﴿لِلْكَٰفِرِينَ﴾:

كفرُ الكافرينَ سببُ ذمِّهم واستحقاقِهم العِقابَ

عُدِلَ عنِ الإضمارِ إلى الإظهارِ في قولِه تباركَ شأنُهُ: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا﴾، أي: للكافرينَ المعهودينَ المذكورينَ فيما سبقَ، ولم يُقَلْ: (إنّا أعتَدْنا جهنَّمَ لهُم نُزُلًا)؛ ذمًّا لهُم بوصفِ الكفرِ، وإشعارًا بأنَّ ذلكَ الإعتادَ بسببِ كفرِهم المُتضمِّنِ لحُسْبانِهم الباطلِ عِبادي أولياءَ[2]، ووجهُ الإشعارِ: أنَّ تعليقَ الحكمِ بالمُشتقِّ يُؤذِنُ بعلّيَّةِ ما منهُ الاشتقاقُ.

سر التَّعبيرِ بـ ﴿لِلْكَٰفِرِينَ﴾ دونَ (الَّذينَ كفَروا):

دلالةُ اسمِ الفاعلِ على تمكُّنِ الكفرِ منهُم، ورسوخه في معتقداتهم

الظّاهرُ أنْ يقالَ: (إنّا أعتَدْنا جهنَّمَ للَّذينَ كفَروا نُزُلًا) بالتَّعبيرِ باسمِ الموصولِ؛ ليوافقَ قولَهُ: ﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ﴾، لكنْ عُدِلَ عنهُ إلى التَّعبيرِ باسمِ الفاعلِ، فقيلَ: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا﴾؛ لإفادةِ صيغةِ اسمِ الفاعلِ تمكُّنَ الكفرِ منهُم، وأنَّ اتِّصافَهم به أمرٌ ثابتٌ لهُم، وهم راسخونَ فيهِ، ولذلكَ استوجَبوا الاختصاصَ بإعتادِ جهنَّمَ لهُم مَضافةً لهم بدوامِ عذابها لهم.

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 367.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 248، والآلوسي، روح المعاني: 8/ 367.

معنى حرفِ الجرِّ (اللام) في شبه الجملة ﴿لِلْكَٰفِرِينَ﴾:

يدلُّ حرفُ الجرِّ - وهو اللّامُ - في قولِه جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا﴾ على أنَّ اعتيادَ جهنَّمَ نُزُلًا أمرٌ مختصٌّ بالكافرينَ؛ لأنَّ اللّامَ فيها معنى الاختصاصِ، والمرادُ اعتادوها بحيثُ تكونُ مُستقَرًّا لهُم يُخلَّدونَ فيهِ، ولا ينافي ذلكَ دخولُ غيرِهم مِنْ عُصاةِ المؤمنينَ فيها، ثم خروجُهم منها بتوحيدهم للّه، أو برحمته التي هي أهلُ الإيمانِ والتوحيدِ أحقُّ بها، أو بشفاعةِ الشّافعين.

إفادةُ لامِ الجرِّ للاختصاصِ تحديدٌ للمقصود بالعقاب

الغرض من تقديمِ ﴿لِلْكَٰفِرِينَ﴾ على ﴿نُزُلًا﴾:

قُدِّمَ ﴿لِلْكَٰفِرِينَ﴾ على ﴿نُزُلًا﴾ في قولِه ﷻ: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا﴾؛ لما يُفيدُهُ التَّقديمُ مِنْ تعجيلِ المَساءةِ للكافرينَ ببيانِ أنَّ اعتيادَ جهنَّمَ لهُم لا لغيرِهم، إضافةً إلى أنَّ تأخيرَ ﴿نُزُلًا﴾ يترتَّبُ عليه ملاءمةُ فاصلةِ الآيةِ لما قبلَها وما بعدَها.

تعجيلُ المَساءةِ ومُراعاةُ الفاصلةِ مفيدٌ في بلاغة الجملة ودلالتها

تنوعُ إعراب ﴿نُزُلًا﴾، وثراء المعنى:

يحتملُ ﴿نُزُلًا﴾ في قولِه عزَّ مِنْ قائلٍ: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا﴾، أوجهًا مِنَ الإعرابِ؛ **أحدُها**: أنَّهُ منصوبٌ على الحالِ، وهو جمعُ (نازلٍ)، نحوُ: شارفٍ وشُرُفٍ، **والثّاني**: أنَّهُ اسمُ موضعِ النُّزولِ، ونصبُهُ على أنَّهُ مفعولٌ بهِ، أي: وصيَّرْنا جهنَّمَ موضعًا لنزولِ الكافرينَ، **والثّالثُ**: أنَّهُ اسمُ ما يُعَدُّ للنّازلينَ مِنَ الضُّيوفِ، ونصبُهُ على أنَّهُ مفعولٌ به أيضًا، أي: وصيَّرْنا جهنَّمَ ضيافةً للكافرينَ[1].

الحاليةُ والمفعوليَّةُ تفصح عن معانٍ متنوّعة

بلاغةُ الاستعارةِ في لفظِ ﴿نُزُلًا﴾:

في لفظِ ﴿نُزُلًا﴾ في قولِه ﷻ: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا﴾، استعارةٌ تصريحيَّةٌ تهكُّميَّةٌ بجعلِ ما يُعذَّبونَ به في جهنَّمَ، كالزَّقّومِ والغِسْلينِ ضيافةً لهُم[2]، نُزِّلَتْ إهانتُهم بالزَّقّومِ ونحوِه منزلةَ

النُّزُلُ ضيافةً استعملت في جهنَّم، للاستهزاء والتَّهكُّم

(1) السمين، الدر المصون: 7/ 552.

(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/ 294، والخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 6/ 137، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 45.

الإكرامِ بالضّيافةِ بواسطةِ التَّهكُّمِ والسُّخريَةِ، فاستُعمِلَ ما وُضِعَ للإكرامِ بضيافةِ المُضيفِ، في الإهانةِ بالتَّعذيبِ بالزَّقّومِ ونحوِهِ[1]، وفيه تخطئةٌ لهُم في حُسْبانِهم؛ إذ كانَ اتِّخاذُهم العِبادَ أولياءَ مِنْ قَبيلِ إعدادِ الزّادِ ليومِ المَعادِ، فكأنَّهُ قيلَ: إنّا أعتَدْنا لهُم مكانَ ما أعدّوا لأنفُسِهم مِنَ العُدَّةِ والذُّخرِ جهنَّمَ عُدَّةً[2]، ولمّا كانَ الضَّيفُ لا يستقرُّ في منزلِ الضّيافةِ، بل ينتقلُ إلى ما هو أهنأُ لهُ في دارِ إقامتِه؛ كانَ في لفظِ النُّزُلِ تنبيهٌ على أنَّ هذا ما لهُم في ابتداءِ أمرِهم، وسيذوقونَ ما هو أشدُّ منهُ في جهنَّمَ أيضًا[3]، وقد جيءَ بلفظِ النُّزُلِ مُنكَّرًا في قولِه جلَّ شأنُهُ: ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا جَهَنَّمَ لِلۡكَٰفِرِينَ نُزُلًا﴾؛ لإفادةِ التَّفخيمِ والتَّهويلِ المناسبينِ لمقامِ الوعيدِ والتَّخويفِ.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الإعتادُ والإعدادُ:

الإعتادُ ادِّخارُ الشَّيءِ قبلَ الحاجةِ إليه كالإعدادِ، وقيلَ: أصلُ ﴿أَعۡتَدۡنَا﴾: أعدَدْنا، فأُبدِلَ مِنْ إحدى الدّالينِ تاءٌ[4]، وأمّا الإعدادُ: فيقالُ: أعدَدْتُ هذا لكَ، أي: جعلتُهُ بحيثُ تتناولُهُ بحسَبِ حاجتِكَ إليهِ[5].

الإعتادُ غالبٌ في تهيئةِ العذابِ، والإعدادُ في تهيئةِ الجنَّةِ والنّارِ

وقد غلبَ في القرآنِ الكريمِ استعمالُ (أعتدَ) في تهيئةِ النّارِ والعذابِ، ولم يُستعمَلْ في غيرِ ذلكَ إلّا قليلًا، وأمّا (أعدَّ) فاستُعمِلَ في تهيئةِ الجنَّةِ والنّارِ والرِّزقِ والأجرِ والمغفرةِ والعُدَّةِ وآلةِ الحربِ[6]، فمِنْ أمثلةِ استعمالِ الإعدادِ: قولُهُ تعالى: ﴿وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾﴾ [النّساء: 93]، وقولُهُ: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ [التّوبة:

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 175.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 248.
(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/ 294، والخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 6/ 137.
(4) الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن: (عتد).
(5) الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن: (عدد).
(6) محمّد داود، معجم الفروق الدّلالية في القرآن الكريم، ص: 338.

100]، ومِنْ أمثلةِ استعمالِ الإعتادِ: قولُهُ سبحانَهُ: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾﴾ [النساء: 18]، وقولُهُ: ﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا﴾ [يوسف: 31]، وقولُهُ: ﴿أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾﴾ [الإسراء: 10] وقيلَ: الإعتادُ فيه حُضورٌ وقُرْبٌ، والعَتيدُ: هو الحاضرُ، أمّا الإعدادُ فهو التَّهيئةُ، وليسَ بالضَّرورةِ الحُضورُ[1].

(1) فاضل السامرائي، لمسات بيانية في نصوص من التنزيل، ص: 315.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثلاثون،
سورة الكهف من الآية 37 إلى سورة مريمَ الآية 12
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثلاثون، سورة الكهف من الآية 37 إلى سورة مريمَ الآية 12
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 30 ، 804 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-27-2
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 30 : المجلد الثلاثون، سورة الكهف من الآية 37 إلى سورة مريمَ الآية 12.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-27-2
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9725630 بتاريخ 2024/11/04م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»